

الترجمة
في العصر العباسي

فاطمة مزهود

جامعة الجزائر 2

البريد الإلكتروني: mezhdz@yahoo.fr

يقول ميشال سير (Michel Serres) إن اللغة هي رمزية تواصل البعد الرياضي المجرد والبعد التاريخي المادي⁽¹⁾، وبهذا المعنى تتراءى لنا اللغة معبرة عن الالتزام بالأرضي، أو غائصة في تيار المعنى، ومن ثم يدل التواصل فيها على السفر والترجمة والتبادل، أي التوجه إلى الآخر، واستيعاب كلمته كنسخة؛ إنها كلمة المتاجر المتبادل للأشياء التي هي رهن الحياز.

و قد اكتست الترجمة أهمية خاصة، فقد برزت كناقل لتراث مختلف الحضارات وثقافتها، وظهرت كحل وسيط لمشكل تعدد اللغات وتنوعها. ويصبو هذا البحث إلى محاولة الكشف عن مسألة الترجمة كغوص في الآخر، ولأنها قضية صميمية في التراث العلمي العربي الإسلامي، فإننا نعتبرها قضية جديرة بالبحث وخليقة بالتناول النقدي.

لقد وجد العرب بعد انتصارهم على الشعوب المجاورة عسكريا، أن هذه الشعوب قد سبقتهم في مجالات الفلسفة والعلوم. ومن طبيعة الأمور أن يأخذ الغالب عن المغلوب أفضل ما عنده، لذا راح العرب يطلبون ترجمة علوم اليونان وحضارة الفرس وثقافة الهند إلى اللغة العربية.

و لم يترجموا الآداب بادئ ذي بدء، بل ترجموا العلوم العملية وما يحتاجونه في الحياة اليومية⁽²⁾، ومنها علم الحساب الذي احتاجوه لإدارة أموالهم وتنظيم موازنتهم التي كانت تزداد سنة بعد سنة في بيت المال، وعلم الهندسة التي احتاجوها لتخطيط المدن والحدائق وبناء الطرقات والأقنية والقلاع والجسور، وعلم الطب لمعالجة الأمراض الحضارية بعد تنوع المأكّل والمشارب، وبعد أن عمّ الترف.

كما كان علم الفلك من ضمن احتياجاتهم لضبط الأوقات، وحساب موعد الأعياد، ومعرفة مطالع النجوم وأحكامها، وتسهيل القيام بالفرائض الدينية التي تحتاج إلى حساب كمعرفة القبلة، ووقت الصلاة والصيام وما أشبهه. وأخيرا كان علم الجغرافيا الذي كانت الحاجة إليه مرتبطة بمعرفة طبيعة الإمبراطورية العربية.

وبديهي أنه لا سبيل لمعرفة هذه العلوم إلا الترجمة. ولعلها كانت بعد الفتح بدافع التقليد المحض.

وشعور العرب بأن المجد العسكري والسياسي والاقتصادي الذي وصلوا إليه لا قيمة له البتة ما لم يقترن بالمجد العلمي. وذلك ما حدث للقبائل البربرية التي تغلبت على الإمبراطورية الرومانية وسواها، وتلك هي سنة التطور الاجتماعي. وقد تألق نجم كثير من العلماء المسلمين وغير المسلمين في الدولة العباسية عالجا كل فروع المعرفة الإنسانية معالجة أكسبتهم شهرة عالمية خالدة من جملتها الترجمة.

ومن أول المترجمين في عهد المنصور، أبو يحيى البطريق (توفي حوالي سنة 190هـ) الذي ترجم كتابا طبية لجالينوس وأبقراط. وكانت ترجمته حسنة، كما كلف المنصور أيضا، محمد بن إبراهيم الفزازي بترجمة كتاب "السند هند". وفي عهد الرشيد، في القسم الثاني من القرن الثامن الميلادي، بدأت حركة الترجمة تنشط.

وكان بيت الحكمة تحت رعايته ورعاية ابنه المأمون مَجْمعا علميا يضم مكتبة عظيمة ولجنة للترجمة⁽³⁾ نظمت في عهد المأمون تنظيما دقيقا.

وانقسم المترجمون في بيت الحكمة إلى فريقين:

فريق كان يترجم رأسا من اليونانية إلى العربية، وفريق آخر يترجم من لغة أجنبية إلى لغة أجنبية كالسريانية، ثم يقوم مترجمون آخرون بترجمة هذه النقول إلى العربية.

وكثيرا ما حدث أن يكون أحد المترجمين غير ملم باللغة العربية إلماما جيدا، فيتقدم عندئذ مترجم آخر ممن يحذق العربية لمراجعة ترجمته وتصحيح ما يرد فيها من أخطاء وتقويم المعوج من عباراتها.

نُظِّمَتْ حركة الترجمة في عهد المأمون تنظيماً دقيقاً، وصارت تحظى برعاية الدولة الرسمية.

وقد أرسل المأمون وفداً إلى ملك الروم يطلب منه المؤلفات اليونانية الموجودة لديه وقد أسس المأمون بيت الحكمة وجمع فيها العلماء والمخطوطات. ومن أهم المترجمين في عهد المأمون الحجاج بن يوسف بن مطر البطريق الذي ترجم من كتب أرسطو إلى العربية "الأثار العلوية"، وكتاب "الحيوان" وبعض فصول كتاب "النفس"، وكتاب "السما والعالَم". وقد عرف في هذه المرحلة أيضاً عبد المسيح بن ناعمة الحمصي، الذي ترجم كتب "سوفسطيقا" وكتاب "السمع الطبيعي" لأرسطو، ومن ثم كتاب "الربوبية" المنسوب لأرسطو وهو من "تاسوعات" افلوطين⁽⁴⁾.

وبعد موت المأمون اهتم بأمور الترجمة أبناء موسى بن شاكر، وهم أحمد ومحمد والحسن، وقد وُكِّلوا هذه المهمة إلى الطبيب حنين بن إسحاق (809م – 873م)، الذي كان يتقن السريانية، وذهب إلى بلاد الروم حيث تعلم اليونانية. ثم عاد إلى بغداد ليتعلم العربية. وفي بغداد تعرف إلى جبرائيل بختيشوع عميد أطباء هذه المدينة. وكان يعمل بالترجمة معه ابنه إسحاق، وابن حبش الأعسم، ويحيى بن عدي. وقد ترجم حنين بن إسحاق "الأجنة"، و"الإنسان"، و"الاهوية"، و"المياه" لأبوقراط، كما ترجم "أصناف الحميات"، و"العروق" وكتاباً في "المزاج"، وآخر في "التشريح الكبير" لجالينوس. وفي هذا العهد برز مترجم مشهور هو قسطا بن لوقا البعلبي (القرن العاشر الميلادي)، الذي كان يعرف العربية واليونانية والسريانية. فاستدعي إلى بغداد حيث اشتغل في نقل الفلسفة والرياضيات، وقد ترجم لذيوفنتوس "الجبر". ثم هناك أيضاً ثابت بن قرة (862م – 901م). وقد ترجم من السريانية واليونانية. وأصلح ترجمة "الأصول" لإسحاق بن حنين، وترجم "الدائرة" و"الكرة" و"الاسطوانة" لأرخميدس و"المخروطات" لأبولونيوس⁽⁵⁾.

ونستطيع القول إن العرب ترجموا أكثرية الكتب اليونانية التي كانت موجودة في القرنين التاسع والعاشر في ميادين الطب والرياضيات والفلك⁽⁶⁾. وهذه لائحة بالعلماء الذين تُرجم لهم إلى العربية: اقليدس، أرخميدس، أبولونيوس،

مثلاوس، تيودوسيوس، نيقوماخوس، هيبرخوس، ذيوفنطوس، بطليموس، اريسترخوس، ثاون، ابوقراط، جالينوس، ديسقوريدس، أوريباسيوس⁽⁷⁾.

أما عن الأساليب التي استعملت في الترجمة إلى اللغة العربية فتمثلت فيما يلي:

- الترجمة الحرفية: التي تقوم على وضع الكلمة العربية مكان الكلمة المنقول عنها. وقد اتبع هذا الأسلوب ابن بطريق وابن ناعمة الحمصي وهو أسلوب قد تختلف فيه معاني الكلمات في العبارة بين لغة وأخرى.

- ترجمة العبارة: وهو أسلوب أخذ به حنين بن اسحاق، ويقوم هذا الأسلوب على قراءة الجملة واستيعابها ونقل معناها في قالب عربي صحيح.

- الترجمة بتصرف: وهو أسلوب يكتفي بالمعنى دون الاهتمام بترتيب الألفاظ والعبارات والأفكار وربما أضاف إليه تعليقات أحيانا، فهو أسلوب يخرج عن نطاق الترجمة المحضة⁽⁸⁾.

أما عن أثر الترجمة والنقل ونتائجهما عند العرب، فلقد أثرت الترجمة إيجابيا في اللغة والفلسفة والعلوم والأدب والإدارة والحكم وحفظ التراث القديم.

وقد ظهر تأثير النقل والترجمة على اللغة في مستويين اثنين هما:

مستوى العبارة، ومستوى المفردات.

أما من حيث العبارة فقد تعرف علماء اللغة والعلوم على تعابير علمية بحتة حسابية وفلسفية وفلكية. وإدراج هذه التعابير في اللغة العربية أصبحت أكثر مرونة وطواعية في التعبير العلمي والفلسفي. لكنها فقدت كثيرا من بلاغتها وجزالتها اللتين تميزت بهما في الجاهلية وفي العصر الإسلامي.

وفي هذا الصدد يقول الجاحظ: "... فاللغة إذا دخلت على اللغة أفسدها".

ولا يعني ذلك إلا أن الترجمة قد أضعفت العبارة وأفقدتها كثيرا من قوتها

وتماسكها.

ومن حيث المفردات يقول دي بور: "فمن طريق التوليد الذاتي والاشتقاق والنحت، وزيادة الألف والنون على الأسماء، وإدخال لا النافية بعد أل التعريف على الألفاظ، اتسعت اللغة بالمصطلحات العلمية والتعابير الفلسفية"⁽⁹⁾.

- التوليد الذاتي هو إعطاء كلمات عربية قديمة مدلولات جديدة مثل: منطق، قياس، موضوع، محمول⁽¹⁰⁾.
- الاشتقاق هو إخراج ألفاظ مستحدثة من أصول ألفاظ عربية مثل: الكمية، الكيفية، الكلي، الجزئي⁽¹¹⁾.
- النحت هو تعريب كلمات يونانية مع مراعاة الأوزان والصيغ العربية مثل: الفلسفة، الموسيقى، الإسطرلاب⁽¹²⁾.
- لا النافية الداخلة على الألفاظ بعد أداة التعريف مثل: اللامحدود، اللانهائي⁽¹³⁾.

وهكذا اتسع صدر اللغة لعدد كبير من الألفاظ الأجنبية بفضل مرونتها وكثرة تصاريفها وطواعية اشتقاقها.

وقد أحدثت الترجمة على الأدب تغيرات عميقة فيما اتسعت له الألفاظ العربية من معان جديدة وغنى في المدلول ودقة في التعبير وسلامة في النطق، وفيما طرأ على الكتابة والتأليف من تنظيم وتنسيق. وكان من أثر الترجمة هجران ألفاظ البادية، واعتماد السهولة والوضوح والتفصيل بدل الإيجاز الذي يقود إلى الغموض. وكذلك اتساع الخيال ورفد الشاعرية العربية بالصور الجديدة. فبعد أن كان الشعر العربي مادة للفخر والمدح والهجاء في معظمه، أصبح في العصر العباسي يتضمن كثيرا من الحكم الفلسفية والتفكير الفلسفي⁽¹⁴⁾. لقد برز الشك عند المعري وما يحتاج هذا الشك من المجهود الفكري. الحكمة عند المتنبّي حتى اتهم بأنه قد ترجم مئة قول لأرسطو شعرا⁽¹⁵⁾. واستعمال أبي نواس المنطق في خمرياته، ورد على بعض المعتزلة الذين حرموا شرب الخمر وجعلوا شربه من الكبائر. وما حدث في الشعر حدث في النثر فقد لجأ الجاحظ إلى العلم والمنطق والجدل في مؤلفاته مما يدل على تأثره بالمعاني الفلسفية التي نقلها المترجمون.

أما في موضوع الفلسفة، فنبتغ عند العرب فلاسفة يرجع السر في نبوغهم إلى الترجمات التي ملأت بغداد وبلاد الشام. ومن هؤلاء نذكر الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد. وكان اعتمادهم على فلسفة اليونان كبيرا حتى عُد هؤلاء تلامذة لأولئك. فقد أخذ الفارابي عن أفلاطون أشياء كثيرة من السياسة، وفي روحانية

النفس وصلتها بالبدن وفي عناصر العالم، ويتجلى ذلك عند اطلاعنا على "المدينة الفاضلة" للفارابي ومقارنتها بـ"جمهورية أفلاطون". كما أخذ ابن رشد عن أرسطو ما جاء في الطبيعيات والأخلاق، فقال بنظرية المحرك الأول والصورة والهيولى حتى سمي بالمعلم الثاني⁽¹⁶⁾. ولا أحد يخالفنا الرأي إن قلنا إن الفلسفة اليونانية لم تصل إلى العرب إلا بفضل الترجمة، كما أن العلوم عند العرب لم تنطلق من الصفر، إنما انطلقت من النقطة التي بلغها علماء اليونان. لقد عرف العرب بواسطة الترجمة معظم مؤلفات أقليدس، وجالينوس، وأبقراط، وبطليموس، وأفلاطون، وأرسطو. وقد كان أثر النقل في العلوم كبيرا، وتكفي على سبيل المثال الإشارة إلى ما تركه الرازي وابن سينا في الطب والصيدلة، وما بحثه البيروني في الفيزياء والمثلثات، وتضاف إلى ذلك الموسيقى، فقد ألف الأصفهاني كتابا وجمع فيه مئة صوت⁽¹⁷⁾.

وهكذا يتبين أن الترجمة أدت للثقافة العربية خدمات جليلة لأنها كانت همزة الوصل بين الفكر اليوناني والفكر العربي كما يقول جميل صليبا.

ولقد حمل العرب علومهم إلى الإنسانية وخدموا الثقافة العالمية بإنقاذهم هذه العلوم من فناء محقق وعن طريق جامعاتهم ومعاهدهم وأبحاثهم وصلت هذه العلوم إلى أوروبا الحديثة.

فقد بذل المترجمون في خلافة العباسيين جهدا عظيما في تكوين المصطلح العلمي والفلسفي، ويعد المترجم المعاصر نفسه سعيدا موقفا إذا اكتشف المصطلح القديم للمعنى الذي يتصدى لترجمته.

وخلاصة القول إن الترجمة غزت مجال الحياة العربية من أدناها إلى أقصاها وفجرت الطاقات الكامنة والمواهب الخلاقة. وكانت أداة للتوعية التي وسعت آفاق الفكر العربي وفتحت مجالات الحوار والتفاعل بينه وبين الأفكار الأخرى، بعد أن ظل أجيالا طويلة منكفئا على نفسه قابعا في عقر داره. وبفضلها انطلق العرب لبناء حضارة عتيقة، وعرمان مزدهر، ونهضة كروية شاملة بعيدة المدى، عمت أبناء جميع البلدان التي انبثوا فيها وكانت عليهم خيرا وبركة.

الهوامش:

1. Michel Serres : Hermès : la communication, édition Minuit ; Paris, France, 1969, P10.
2. حميد حوراني، "تاريخ العلوم عند العرب"، دار المشرق، ش م م، بيروت، لبنان، ص 50.
3. قدرى حافظ طوقان، "تراث العرب العلمي"، دار المعارف، مصر، 1969، ص 69.
4. جورج سارتون، "تاريخ العلم"، ترجمة محمد يوسف نجم، دار المعارف، مصر، ج 6، ص 55.
5. فرانز روزنتال، "مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي"، بيروت، 1960، الترجمة العربية، ص 72.
6. أولري دي لاسي، "علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب"، القاهرة، 1962، ص 33.
7. سيدو، "تاريخ العرب العام"، الترجمة العربية، القاهرة، 1967، ص 19.
8. الكرجي، "كتاب البديع في الحساب"، تحقيق عادل أنبوبا، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الرياضية، بيروت، 1964، ص 13.
9. موريس شربل، "الرياضيات في الحضارة الإسلامية، جارس برس، طرابلس، لبنان، ص 110.
10. قسطنطين زريق، "في معركة الحضارة"، دار العلم للملايين، ط 1، بيروت، 1964، ص 38.
11. دي بور، "تاريخ الفلسفة في الإسلام"، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريدة، الدار التونسية للنشر، ص 80.
12. عبدو الشمالي، "دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها"، دار الصادر، بيروت، ط 5، ص 90.
13. ابن أبي أصيبعة، "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، بيروت، 1965، ص 45.

14. أوليري دي لاسي، "الفكر العربي ومركزه في التاريخ، الترجمة العربية، بيروت، 1955، ص 99.
15. الدوميلي، "العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي"، الترجمة العربية، القاهرة، 1962، ص 102.
16. فارنتن بنيامين، "العلم الإغريقي"، الترجمة العربية، القاهرة، ص 56.
17. محمد عبد الرحمان مرحبا، "الجامع في تاريخ العلوم عند العرب"، منشورات عويدات، بيروت، ص 237.